مجموعة قصصية من الواقع للدكتور وليد قصاب:

البـــوح*

بقلم: عبداللطيف الأرناؤوط
سوريا

مما يلفت النظر في المجموعة القصصية (البوح) للدكتور وليد قصاب التزامه المطلق بالمبادئ الفنية المتداولة للقصة القصيرة، فالسارد للأحداث هوالكاتب باستمرار، دون خروج عن هذه النمطية. فإذا استوفى الكاتب تسليط الضوء على الحدث الأساسي للقصة، ورسم شخصياتها الرئيسية، انتقل بعد ذلك إلى تطوير الشخصيات خلال الحوار بينها، وهو حوار يتم باللغة الفصيحة في القصص كلها.

وكأن الكاتب لا يؤمن باستخدام العامية في الحوار للتعبير عن السمات المميزة للشخصية خلال حديثها وتعبيراتها، وهذا النهج في الكتابة للكاتب يلتقي والحفاظ الذي يسود رؤيته الفكرية والخلقية، فهو مدافع عن المثل والقيم الاجتماعية السامية التي تحكم مجتمعه العربي والإسلامي، ولا يرضى عنها بديلا، ومن أبرز هذه القيم الحرية الإنسانية التي تجسده قصة **«البوح»** فبطلها يكاد يختنق بسبب الكبت الذي يعانيه في قلب مجتمع زائف آثر النفاق الاجتماعي حتى في الأسرة وبين أفرادها، وتتأزم نفسية البطل، فيضيق ذرعا بكل ما يعوق حريته في التعبير عن رأيه، فيطلق امرأته بعد أن يواجهها بأغلاطها، ويكاشف مديره، ويعريه فاضحا فساده وسوء إدارته، ويحس أن غمامة انجلت عن صدره، لكنه يدفع الثمن غاليا إذ يطرد من عمله، وتتخلى عنه زوجته.

وفي قصة **«الزميلان»** يبدو البطل شخصية ضاقت به ظروف الحياة، فقد كان طيلة حياته إنسانا مجتهدا، وقاده طريق العلم إلى الوظيفة على قلة مردودها، بينما نجح زميل دراسته إذ ترك المدرسة ليصبح تاجرا.

وحين ذهب لمقابلته عسى أن يفرج عن كربته، توقع أن يستقبله بالأحضان، فإذا بالرجل يتركه ساعات ينتظر في غرفة الانتظار، ثم يخرج ولا يعيره التفاتا.

القيمة العليا التي يدافع عنها الكاتب «قصاب» هي ذلك الأفق الإنساني النبيل الذي كان يسود الحياة من قبل.

وحلت الفردية القاتلة والأنانية المطبقة في مجتمعنا بسبب سيادة القيم المادية، واختلال المعايير التي نقوم بها الإنسان اليوم.

وفي نطاق الدعوة إلى تحرير الإنسان من الاستبداد والظلم تجسد قصة **«الكابوس»** المظالم التي يعانيها الإنسان العربي في ظل الأنظمة الاستبدادية وأجهزتها الأمنية، فالبطل يساق إلى أحد أقبية الأمن، يذل ويهان دون أن يعرف سبب توقيفه، ويتبين أخيرا أنه ليس الرجل المطلوب، وفي قصته **«بديعة الدوماني»** يسوغ الكاتب انحراف «بديعة» التي انتظرت حبيبها عشر سنوات بلا جدوى، فسطا عليها الذئاب البشرية، وانتهى بها الأمر أن تكون راقصة. ومثلها قصة **«حادثة من أيام الطفولة»** إذ يحمل الكاتب الرجل مسؤولية التغرير الذي يحل بالمرأة، بل يحمله مسؤولية اختيار سلوكها ونمط حياتها أيضا، فإذا كانت على قدر من العفة والخلق القويم لم يرضه منها قصور في إبراز مفاتنها وأنوثتها، مثل بطلة قصة **«امرأة أخرى»**، التي كانت امرأة مثالية، لكنها مترهلة مهملة زينتها، وزوجها يريد لها أن تثيره بمفاتنها، فنصحها باتباع دورات الرقص، وفتح أمامها عالما كان مغلقا دون أن يحسب حساب توقع انزلاقها، وهو ما وقع فعلا.

ويعرّي الكاتب بعض صور الخنوع والنفاق الاجتماعي في قصة **«الانتظار»** إذ يتوقع مدير المشفى بطل القصة زيارة زوجة شخصية مهمة في الدولة

* صدرت عن دار الفكر بدمشق، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م

لإجراء فحوصات. فيتوتر ويستنفر العاملين في المشفى، حتى يفقد أعصابه، وبعد ساعات من الانتظار يمر موكبها متجاوزا المشفى، فينخذل المدير ويبدو صغيرا في عيون موظفيه.

ولعل قصة **«حافظة النقود»** من أنجح قصص المجموعة لأنها منتزعة من الواقع، وإذا كانت المصادفة هي التي جمعت بين صاحب المحفظة وصاحب السيارة بعد سنوات، والمصادفة نادرة الوقوع في الحياة، من شأنها أن تُبعد الحدث عن الواقع، والقصة تهدف إلى تجنب التسرع في الحكم، والأناة في توجيه الإدانة.

وإذا كانت القصص التي بطلاتها من النساء قد عالجت وضع المرأة في إطار المنزل، فإن قصة **«يوم امرأة عاملة»** تمس مظهرا من مظاهر التطور في حياة المرأة بعد خروجها إلى العمل، والنموذج الذي اختاره الكاتب .. نموذج المرأة الموظفة التي لا هم لها إلا التبرج وإغراء زملائها، ولا يصح لنا أن نعمم هذا النموذج على العاملات كلهن، لكن الكاتب آثر أن يحدث انقلابا في نفسية هذا النمط من النساء اللائي يتنبه وجدانهن فجأة على تصرفاتهن المغلوطة، ويعدلن سلوكهن بالعودة إلى محاسبة الذات، والرجوع إلى الطريق القويم الذي يحدد رسالتهن في الحياة، وهي رعاية البيت والزوج والأطفال وأداء عملهن الوظيفي بحشمة واتزان . ولا يمكن اعتماد صلة هذه الظاهرة بالواقع الراهن بعد فسحة الحرية الممنوحة للمرأة والمبالغ فيها .

وفي قصة **«الشاعر والمسابقة»** نقد ساخر للبرامج الإذاعية،حيث حجم فيها دور المثقف الحقيقي، وتسطحت إلى حد التفاهة، وقد أجاد الكاتب تصميم حبكة القصة، وتعرية ضحالة هذه البرامج بسبب استئثار بعض مقدميها ممن ينشدون تسلية المستمع لا تثقيفه.

وتختلف قصة **«الميتتان»** عن قصص المجموعة . حيث تزرع التفاؤل والعزّة الوطنية في النفوس، وينتصر في نهايتها الخير على الشر، بفضل المدافعين عن حماهم، وما اتسموا به من شجاعة فائقة في مواجهة أحدث أسلحة القصف والتدمير التي يملكها العدو .. ومثلها قصة **«الوصية»**.

وفي قصة **«العيد»** تصوير للبؤس الاجتماعي، وما يخلفه لدى الفقراء من آلام ومنغصات ألفت نفوس الفقراء مداواتها بالصبر والتجمل والتحدي وعزة النفس..

* * *

ينطلق الدكتور وليد قصاب في سرد قصصه بلسان الكاتب بلا تمهيد أو مقدمات، فيضع القارئ في قلب الحدث مباشرة، ويسلط الضوء عليه راسما الشخصيات الثانوية في ظلال تصرفات البطل، ويُقيم صورا من الصراع بين البطل ومحاوره .. كما في قصة «الشاعر والمسابقة» والمحاورة هي الزوجة، أو بين البطل والقدر أو المصادفة «حافظة النقود، والزميلان، ومرشدة» . أو بين البطل ونفسه «امرأة أخرى» . ويطيل أمد الصراع بأساليب من التشويق تستهدف إرجاء الحل، إلا أن أبطاله من نوع معين، فهم مأزومون تنتهي أزمتهم بمفارقة مرة أو ساخرة تؤثر في النفس تأثيرا مميزا وطويلا.

أما لغة القصص فالكاتب يستخدم الجمل السردية الطويلة، مما يؤثر على رشاقة التعبير وحيويته.

وإنني أرى أن اللغة القصصية عنصر هام من عناصر فنية القصة وجماليتها، فالفضاء اللغوي للقصة جزء هام من تكوينها الفني والجمالي، وبه تميزت الأعمال الأدبية البارزة، فإذا أضفنا إلى ذلك بعد لغة القصة عن تصوير الواقع، واعتماد الصيغة الأدبية الرصينة، أمكننا القول: إن المؤلف لاحظ هذا في تقنية سرد القصة،وهو يرى أن هدف اللغة الساردة إنما هو بنية فنية يجب أن تعكس الواقع وتنبض بالحياة، وتتسم بالرشاقة وطرافة التعبير، وتنأى عن الجمود والرتابة . كما نلاحظ بوضوح نزعة الكاتب في المحافظة على خصائص اللغة العربية التي تبدو من خلال السرد، فهو يتقن أسرارها ويكتب بطواعية متألقة إذ تغدو أكثر إيحاء وتعبيرا عن الحياة. ■